

المحسوبة في مصر

وآثارها في حياتنا القومية

بقلم الدكتور على عبد الواحد وافي

الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

أشكر لمجلة الشؤون الاجتماعية أن أتاحت لي فرصة للتحدث إلى قرائها من أخطارها من أدوائها ، وشدها فتكا بالأخلاق ، وتأصلا في النفوس ، واستعصاء على العلاج ، ذلك هو داء المحسوبة والمحاباة .

لم يفادر هذا الداء أى فرع من فروع الحياة في مصر ، إلا نبت فيه سمومه ، فظهرت أعراضه في حياة الفرد وحياة الأسرة وفي مختلف شؤون الدولة ، وبدت عواقبه الوخيمة في إنتاجنا المادى والعقلى ، ونجم عنه معظم ما نشكو منه الآن من مظاهر الشذوذ والانحلال الدينى والخلقى .

فقد كان من آثار المحسوبة ، أن أسند كثير من أعمال الدولة ووظائفها إلى من لا يحسنون القيم بها ، فكثرت من جراء ذلك الأخطاء ، واضطربت أداة الحكم ، وتعطلت مصالح ، وضاعت حقوق ، وأغفلت واجبات ، وأوغر هذا صدور الناس ، ونزع من نفوس الشعب الثقة بالمديرين لشؤونه .

وكان من آثارها كذلك أن أقصى كثير من أرباب الكفايات عن الأعمال التي يحسنونها وتظهر فيها كفاياتهم ، لاشئ إلا لأنهم حرموا نعمة السند من ذوى الجاه ، ولم تسعهم رحمة المحسوبة ، فتمتعوا بذلك موهبهم ، ونحمت جذوة نشاطهم ، وتضاءل إنتاجهم ، وخسرت الأمة من وراء ذلك أيما خسران .

وكان من آثار المحسوبة أن صدف كثير من الموظفين وغيرهم عن إتقان أعمالهم وتجويدها إذ ألقي نظام المحسوبة في روعهم أنه لن يقام وزن هذا الإنقان ، ولن يقدمهم إحلاصهم لأعمالهم قيد أنملة ، وإن أفنع لهم وأجدى على مستقبلهم أن يبذلوا جهودهم في ابتغاء الوسيلة إلى العطاء والاتصال بذوى الجاه . فاهملت بذلك الواجبات ، ونزع من نفوس كثير من

الناس خلق الإخلاص في العمل والشعور بالنبعة ، وبذلت جهود كثيرة في سفساف الأمور ، ولو بذلت في وجهها الصحيح لأفادت الأمة منها أكبر فائدة .

وقد أفسد نظام المحسوبة أخلاق كثير من الناس ، فتردوا في وهدة الرذيلة ، واضطنعوا أساليب الكذب والخداع ، وأجادوا وسائل التلق والمداينة والفاق ، وتكونت لديهم من جراء ذلك عادة من أقبح العادات وأشدها تارضا مع الفضيلة ، وهي إتيان الأشياء من غير أبوابها الصحيحة ، وابتغاء الأمور بغير وسائلها المشروعة .

وقد أفسد نظام المحسوبة أخلاق كثير من الرؤساء أنفسهم ، وأورثهم العجب والزهو والفرور وحب الملق من المرعوسين ، فاختلفت موازينهم ، وفسد تقديرهم للأشياء ، وانخرقت أحكامهم عن جادة العدالة ، حتى أصبح المرعوس لا يقاس عند كثير منهم بعمله وكفايته ، بل بمبلغ ما يتمتع به من سند عند العظماء ، وما يجيده من أساليب النفاق ، ويبدو عليه في حضرته من مظاهر الذل والخضوع .

وقد أدى نظام المحسوبة إلى ضياع قسط كبير من أوقات الرؤساء والوزراء والشيوخ والنواب في استقبال ذوى الحاجات لأمر تتعلق بالتوسط والشفاعة ، وإلى أن أصبح عامة الشعب يتوهمون أن لا وظيفة لمثل الأمة غير التوسط والشفاعة ، وتوظيف من لا يستحق الوظيفة ، وترقية من لا يستحق الترقية ، وقضاء الحاجات عن طريق الاستثناء . وقد تطور هذا الوهم حتى صار البعض يظنون أن من الممكن بفضل المحسوبة أن يفلت المعنى من العقوبة على عمله ، فلا يلقى جراء ما كسبت يده ، فكم مخالفة ارتكبت ، ونجا مرتكبوها من الحساب ، لانتمائهم إلى العظماء ، ومحسوبيتهم على الشخصيات البارزة . ومتى شعر الناس أنه من الممكن أن يفلت المعنى من العقوبة ، وأن من له ظهر لا يضرب على بطنه كما يقول المثل . فقل على الأخلاق وعلى النظم الاجتماعية العفاء .

وقد أدى نظام المحسوبة إلى كثرة عدد الموظفين ، واستنزافهم لقسم كبير من موارد الدولة ، فكثيرا ما خلقت الوظائف خلقا لأشخاص المحسوبين ، وكثيرا ما حال دون إلغاء الوظائف التي لا حاجة إليها أنها مشغولة بأحد هؤلاء أو أنه يحتفظ بها لأحدهم... وهكذا ظل عدد الموظفين ينمو ثم ينمو حتى باغوا نسبة لا تكاد نجد لها نظيرا في أي أمة من أمة العالم ، وحتى أصبح أكبر قسم من موارد الدولة وقفا على مرتباتهم ، فتعطل من أجل ذلك كثير من مشروعات الإصلاح الاجتماعي ، وأصبح أهم وظيفة للحكومة أن تعول هذه الجيوش الجائرة من الموظفين .

وعلى نظام المحسوبة يقع قسط كبير من النبعة في أزمة البطالة التي تعاني شرورها الآن . وذلك أن اعتماد كثير من المتخرجين في المعاهد على المحسوبة ، وأملهم أن يصلوا من طريقها

الى وظيفة حكومية ، كل ذلك ينأى بهم عن الأعمال الحرة ، ويجعلهم يثرون البطالة حتى تتجح وساطتهم ، ويدفعهم الى التراحم بالمناكب على أبواب الدواوين ، وهذا حيز ضيق لا يتسع لعشر معشارهم ، وتحيط به ميادين البطالة من جميع الجهات ، ولو لم يكن نظام السوبية سائدا في مصر ، لابتغى هؤلاء وسائل العيش من طريق آخر ، فتخف بذلك وطأة البطالة وينجو مما يهددنا به من شر مستطير .

وعلى نظام المحسوبية يقع كذلك قسط غير يسير من التبعة في أزمة الزواج . فقد اتجه الشبان ، واتجهت عائلاتهم ، تحت تأثير هذا النظام ، اتجاها غريبا في شؤون الزواج . فجعلوا من هذه المقدرة الشريفة في ذاتها وسيلة للاتصال بالعظماء ومصاهرة ذوى الجاه حتى يكون لهم من ذلك سند يصلون به الى غاياتهم في الحياة . فكثرت الطلب على بنات العظماء ، وقليل ما هم ، وقل الطلب على من عداهم ، وهن الأفضلية الساحقة ، فنشأ من جراء ذلك أزمة الزواج ، واضطربت الحية في كثير من العائلات ، اذ لا يرجى استقرار لزواج قائم على غرض وضع من هذا القبيل .

هذا طرف يسير من آثار المحسوبية في مصر ، ومنه يتبين صدق ما ذكرته في أول كلمتي ، من أن هذا الداء لم يغادر أى فرع من فروع حياتنا إلا نفث فيه سمومه الفتاكة .

أما علاج هذا الداء الوبيل فيبدو هينا يسيرا في ظاهر الأمر ، ولكنه في الواقع عسير كل العسر . فهو من الناحية النظرية لا يتطلب أكثر من أن توضع لجميع شؤون الدولة ، جليتها وحقيقتها ، قواعد ثابتة مضبوطة ، لا ينفذ اليها الشذوذ ولا تحتل الاستثناء ، ولا تسمح بمحسوبية أو شفاعاة ، ولا تفرق بين طبقات الناس : تقدر كل امرئ حسب كفايته ، ومبلغ إجادته لأعماله وما يقدمه لبلده من جهود لا حسب نسبه وجاهه وصلته بالعظماء ، تجزى المحسن باحسانه وتأخذ المسىء بإساءته ، وتقوم على أساس المساواة بين الناس في الثواب والعقاب ، وتبعث نصوصها في نفوس الشعب اليقين بأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

هذا كله ممكن من الوجهة النظرية ، فما أسهل وضع القواعد وسن القوانين ، وما أسهل تحرى الدقة في صيغ هذه القواعد ، ومواد هذه القوانين . ولكن القانون شيء وتطبيقه شيء آخر . فكثير من شؤون الدولة في الوقت الحاضر مقيد بقوانين من هذا القبيل ، ومحاط بسياج من القواعد العادلة : ولكن هذه القواعد ، لسوء الحظ ، تترامى وتناين أمام سطوة المحسوبية .

فلن يقض على هذا الداء العضال إلا اذا من الله على رؤسائنا وأولى الأمر منا بفضيلة العدالة وخلق الأنصاف ، فلا تأخذهم في الحق لومة لائم ، ولا تثنيهم عن العدالة شفاعاة

شفيع . وهنا يبدو وجه الصعوبة ، ويظهر الفرق بين الامكان النظرى والامكان العملى .
فاذا كان من السهل أن تسن القوانين وتوضع القواعد ، فمن الصعب أن تكتسب الأخلاق
وتتغير السجايا ، وخاصة اذا كانت هذه الأخلاق والسجايا لا تواتيهما بيئةنا المصرية .
فحياتنا الاجتماعية محاطة بظروف غريبة تحول دون نمو هذا الخلق ، وأساليب التربية التى
أخذنا بها فى المنزل والمدرسة والمجتمع ، تنفح حجر عثرة فى هذا السبيل . فقد عودتنا هذه
الأساليب التواكل والاعتماد على الغير والاتجاء إلى التوسل والشفاعة ما استطعنا إلى ذلك
سيلا ، ومراقبة الناس أكثر من مراقبة الله والضمير .

تغير علاج لذلك أن نعمل على تغيير أساليب التربية ، وخاصة فى المدارس بمختلف فروعها
ودرجاتها ، فنحن فيها بتكوين الأخلاق وبث الفضائل فى الفوس أكثر من عنايتنا بشرح
المسائل وحشو الذهن بالحقائق ، وتحمية القوى العاقلة حتى ينشأ أولادنا مزودين بفضيلة
العدالة وحلق الصراحة والاعتماد على النفس ومراقبة الله والضمير فيما يفعلون . فلا خير
فى العلم إذا لم يرقم على دعامة من الخلق الفاضل . وقد قدمت لنا الحرب الحاضرة أقطع دليل
على ذلك . فما دوا إلا أن امتحننت هذه الحرب بارها معدن الأمم حتى ذاب ما كان منها واهن
الأخلاق ، على الرغم من أنه كان قد بلغ الذروة فى العلم والارتقاء الفكرى .



وفى انتظار هذا الجليل الحديد الذى سنعمل على تنشئته على تلك الصورة ، ينبغى أن
نأخذ نحن أنفسنا ما استطعنا بنحق العدالة والإنصاف وبغض المحاباة ، ولتكن لنا أسوة
حسنة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاءه مرة أسامة بن زيد يشفع فى رجل وجب
عليه حد السرقة ، فانهزه عليه السلام وقال مفضيا : " أتشفع فى حد من حدود الله ؟ والله
لو أن فاطمة بنت عبد سرقت لقطعت يدها " . ويدبغى كذلك أن نرجع البصر فى نظمنا
وقوانيننا فنصلح ما عسى أن يكون فيها من فساد ، ونكمل ما فيها من نقص ، ونزيل ما تشتمل
عليه من مظاهر الرخاوة والمرونة . وحيدا لو أنشأت وزارة الشؤون الاجتماعية لجنة من
كبار المصلحين لمحاربة المحسوبية وتطهير البلاد من شرورها ، فذلك لا يقل أهمية فى نظرى
عن كثير من الشؤون التى تشغل نشاطها فى الوقت الحاضر ما

على عبد الواحد وافي